

رواية "بروموسبور" لحسن بن عثمان الرواية تكتب صاحبها

ثمة من زعم أن الرواية هي أمّ الفنون المكتوبة، وأنا أقول على لسان حسن بن عثمان في بروموسبور (ص 127) إن كرة القدم هي أم الفنون المشهدة جمعاء بلا منازع، فيها يلتقي التقاء عبقرية الفن التشكيلي بالموسيقى وعروض السينما بعروض المسرح وعروض الرقص، فأخصّ خصائص هذه الفنون تستحوذ عليها المقابلات الكروية الناجحة فتختلط متعة البصر بالتناغم مع الموسيقى مع كل لعب مرّتب، فيه تأليف وتنسيق ينحو مرّة نحو البساطة، وأخرى نحو التعقيد، ويتمازج التشويق مع الصراع مع البطولة، فتطير الألباب مع تطاير الكرة وتصير الأقدام الفدّة تركز الكرة وتتدافع في الملعب في رقصات متتابعة تضيف على العفوية رونقا وجمالا مضاعفين. كل مقابلة كروية هي أنشودة تحيط بكل ما هو جميل وأصيل في الإنسان لأنها أنشودة البدايات، ترتفع عن المأساوي وعن التراجيدي وعن الكوميدي وتتنزه في مناطق أخرى من الوجود حيث البراءة سيدة مطلقة، إن لغة كرة القدم هي لغة محض مثل الأصوات المحض والألوان المحض، بدون دلالات ولا معان لأنها تعود إلى الزمن الإنساني الأوّل حيث اللعب والمرح هما كل شيء، ورواية حسن بن عثمان بروموسبور قائمة على فصول خمسة هي القواعد الخمس للفوز في لعبة الرّهان الرياضي :

- عقد النية وإقامة الرجاء
- شراء القصاص الخاصة
- تعمير القصاص كيفما اتفق
- الحرص على تتبع نتائج المباريات
- عدم اليأس وتكرار العملية من جديد

إن الإدمان على هذه اللعبة مآة إيمان - عباس - وهو أحد الشخصيات المحورية- بجدوى الحظ في حياته التي بدأت ترسم خيوطها الكبرى عن طريق القرعة، وذلك عندما رغب خاله في تقديم المساعدة إلى أخته بتبني ولد من أولادها، فجرى الاختيار عن طريق القرعة عندما جيء بعشرة أعواد ثقاب سبق إشعالها إلا واحدا منها، ووضعت في علبة وقيد ثم يتناول الإخوة في كل مرة أحدا منها وهي مخفية وعندما وصل دور عباس وكان الخامس سحب المطلوب منها فكسب الرهان وصار في كفالة خاله الذي بادر بتربيته وتعليمه (ص 149) بل إن عباس قد تفاعل كثيرا عندما تعرّف على الإمام سعدون عن طريق الوقيدة ذات صباح باكر.

أمّا شخصية - سيسي - الكاتب فهي نمط واضح لفئة بعض الأدباء في هذا العصر الذي جاء إلى عالم الأدب عن طريق المصادفة، كي يتمكنوا من الربح أوّلا وآخرًا، وهو يتابع كتابة روايته فصلا بفصل حتى ينشرها بسلفة من الإمام سعدون ممّيا نفسه بالفوز في الرهان الرياضي أو بالفوز بجائزة أحد البنوك الأدبية، رغم احترازه على مكانة أصحاب لجنة التحكيم الذين يتميزون بشأن خاص بهم وهو الإحباط الأدبي (ص 99) إذ قلّ وندر أن تجد من بينهم عضوا له إعتزاز إبداعي بما أنتج مثلما لا تجد من بينهم على من فاز فوزا بيّنا لا شبهة فيه في حياته الأدبية لذلك فهم ينطوون على حقد دفين يجعلهم يزيّفون الفوز حين ينتقون له أكثر النصوص قابلية للموت.

في مقطع آخر من الرواية (ص 100) ثمة تعريض واضح بهؤلاء السّاهرين على الحظوظ الأدبية ضمن الجوائز واللجان الأدبية، فقد إنطع في ذهن سيسي الكاتب أنهم من أصحاب النصوص المهملة السقيمة ويتصفون بالانتهازية والتملّق، يمضون أوقاتهم في الاتصالات بالجهات النافذة لتمكنهم من موقع هنا وهناك... وهم أكاديميون يلهثون وراء أجور إضافية في أعمال لا يفقهون منها شيئا، متحقّرون دائما

يهولون بإشارة منه وإن كانت إشارة وهمية وبشدون نظاراتهم إلى أنوفهم

إنّ هذا التصوير اللاذع والكاريكاتوري لهذا الصنف من المثقفين يندرج ضمن فضح القيم الجديدة التي يستند عليها الناس في عصر كرة القدم... إنها قيم المال والجنس التي تبيح كل شيء وتجعل الممنوع مباحا، ومن المباح منعا باتا. ولعل شخصية الإمام سعدون تُعتبر خير مثال على التناقض الصارخ بين المقدّس والمدنّس، وكيف يحاول إيجاد الخيط الواصل بينهما في إجهاد وتلفيق بين متطلبات حياته وواجبات عقيدته.

رواية الرواية

رواية حسن بن عثمان تمثّل رواية الرّواية نفسها، من بدء التفكير في مشروعها إلى تحبير فصولها الواحد تلو الآخر حتى النهاية، بالإضافة إلى تضمّنها نبذة نقدها الذاتي حيث ينبري كاتبها - سيسي - هذا في ترصّد شخصياتها قائلا (ص 122) : "فكّر سيسي أن روايته مليئة بالشذوذ في العلاقات الزوجية : علاقة الإمام بزوجته وبفائزته، علاقة عباس بنفيسة وسلمى علاقة سيسي بطليقته صفوة كلها علاقات معطوبة، وعلى غير ما يرام، النساء هنّ الضحية الأولى والرجال هم ضحايا بالتبعية.

إذا كانت وضعية أغلب النساء في هذه الرواية تدلّ على إستغلال المرأة وإعتبارها في أسفل الترتيب بل ونعتها في كثير من الصفحات بما يثير الإشمئزاز والقرف، فإن امرأة منهن هي زوجة عباس نفسه تبدو على كثير من الوعي والجرأة عندما طرح عليها مسألة تعدّد الزوجات ص(164) رغم ثقافتها العامة، فهي تؤمن إيمانا بديها بالمساواة بين الرجل والمرأة، ولو طرحت عليها المفاضلة بينهما لإختارت المرأة وبوّأتها موقعا أفضل من موقع الرّجل، لأن المرأة لديها

هي الأصل، فالأنوثة هي رحم العالم، حيث هناك يتشكّل كل شيء (ص 165) إنّ - نفيسة - ولعلّ الإسم مقصود الدلالة- أنموذج المرأة المتي تتحدّى الظروف وتقهّر الصعاب وتدافع بالقوة وبالمكر عن شرفها وتكسب رزقها بالتعلّم والعمل وتذود عن بيتها وأسرتها في همّة وكبرياء.

المبدع ذو عاهة

إنّ إنتصار - سيّسي - الكاتب لروايته أمرٌ واضح لا شكّ فيه فهو يعتبرها، سلاحه الأخير حين إنعدمت لديه جميع الأسلحة الأخرى (ص 116)، ولكن هذا الإنجذاب إلى الكتابة وإلى الأدب لم يمنعه من النظر إلى فئة الأدباء نظرة الرّيبة حيث يرى أن كل الفنانين والمبدعين عامّة هم أناس مرضى وسقيمون ومعقّدون، وهو يستشهد بأبي نواس في قوله:

تعجبون من سَقمي* صَحّتي هي العجب

ويرى أن أولئك الأدباء يحوّلون سُقمهم إلى بضاعة جَدّابة ويتاجرون بها فيشبهون حينئذ المتسوّلين ذوي العاهات الذين يعمدون إلى إبراز عاهاتهم بطرق مبتكرة لإستدرار العطف والشفقة ليحصل لهم إبتزاز ضحاياهم من الناس الطيّبين والفنانون والمبدعون كما أورد حسن بن عثمان على لسان صاحب روايته أنّهم ذوو عاهات (ص 129).

ثمة إذن حدّة في التناول ومكاشفة في التشرّيح فبمواقف الشخصيات التي يستبطن أفكارها ويجوس عوالمها إلى حدود التّماهي والتماثل معها في كثير من الأحيان عندما تختلط أوراق الرواية الأصل بالرواية التي ترويها وعندما يتقمّص حسن بن عثمان شخصية سيّسي الكاتب الذي يدّعي أنه عضو باتحاد الكتاب والواقع أننا لا نعرف كاتباً يحمل هذا الإسم، فهل هو القناع الذي يخفيه مرة ويتقمّصه مرة؟ خاصة في المواقف التي نقرأ فيها نقداً مباشراً للأدب وللمثقفين مثل (ص 100) : "قد إنخرط في عضوية إتحاد الكتاب واكتفى بالفرجة على تناطحات الكتاب والشّعراء متابعاً إشاعات وأخبار مداولات اللجان

الأدبية ونتائجها في مقاهي العاصمة حيث يتحلّق يومياً الكتاب العاطلون عن العمل وما أكثرهم وهم العاطلون عن كل عمل منتج ونافع، عدّا أنشطتهم المحمومة في الوقعة بين بعضهم البعض وشتائمهم العالية الصوت، ينالون بها كل من هبّ ودبّ..."

وجه وقناع

الرّواية إذن متن وحاشية، ووجه وقناع، وأصل وفرع بالإضافة إلى ثنائيات أخرى في مستوى الضمائر والزمان والمكان، فتستحيل إلى حكاية عن الحكاية، وعندها يتقاطع الأسلوب من الحديث الأدبي الفني إلى الكلام النقدي في شعبه المتنوعة حيث استطاع حسن بن عثمان إتقان لعبة التجلي والاختفاء بمهارة تدلّ على إحكام صنعة ودقة تناول في تسيير الأحداث وتصعيدها إلى الأقصى .

إنّ هذه الرواية تقترب من فنّ السيرة الذاتية في بعض فصولها، وهي تلامس التحليل الاجتماعي والحضاري في غضون بعض فقراتها، وهي بين هذا وذاك تمثّل صوت الجيل الجديد في الرواية العربية الذي استفاد من تراثه القديم في القصة والخرافة والأخبار بالإضافة إلى استفادته من منجزات الرّواية العربية، مما يجعل هذا الجيل يراهن على فتح البوابات الجديدة على مصراعيها باستعمال تقنيات المسرح والسينما والسيناريو بالإضافة إلى أسلوب الشّعْر فتستحيل الكتابة إنشاءً آخر هو توليفة الفنون والأساليب كلّها.

إنّ حسن بن عثمان في روايته "بروموسبور" قد شرع في السير على طريق طويلة عليه أن يواصلها بكثير من الدّأب.

إنّ - مسافة الألف ميل تبدأ بالخطوة الأولى - كما يقول المثل الصّيني.